علاقة التنظيم بالعمل الانقلابي

تعلمون ان مرحلة الانقلاب في حياة الامة، هي المرحلة التي يكون التشويه والانحراف قد طرأ على مختلف الاوضاع فيها، ليجعلها متناقضة مع مصلحة الشعب متعارضة مع التقدم والنهضة والانبعاث القومي. وتمكن الفساد التشويه والانحراف وانتشاره يحدث هزات في حياة الشعب، ويخلق نوعا من الاضطراب والشعور بالحاجة الى تبديل الاوضاع ومقاومة الفساد. ولكن هذا الشعور لايتبلور بشكل واضح واع، الا عند اقلية من ابناء هذا الشعب، تدرك واقع امتها وتصمم على تبديله، وتتقدم الصفوف للنضال في سبيل قلب هذه الاوضاع وتغييرها، وتتجه الى الشعب لتنقل اليه وعيها، عاملة على تنبيهه وتثقيفه وتوضيح واقعه له، جاهدة لتسير بالشعب في طريق النضال المنظم.

فمن خصائص المرحلة الانقلابية اذن، ان تكون قيادة الحركة الشعبية بيد أقلية، اذ لو ان اكثرية الشعب كانت قادرة على وعي مساوىء الاوضاع حق الوعي، ولو انها كانت قادرة على تنظيم صفوفها حق التنظيم، ولو انها كانت تسير من نفسها في طريق النضال الجدي لتبديل الاوضاع، اذن لما كانت المرحلة انقلابية، ولما كانت الامة بحاجة لانقلاب في حياتها وأوضاعها للنهوض، بل لسارت اليه وتقدمت، عن طريق التطور الطبيعي. ولكن مثل هذا الوعي الشعبي العام، ما زال غير متوفر، والحياة السياسية ضمن شروط النظم القائمة، ما زالت قاصرة عن تمثيل ارادة أكثرية الشعب وعن ايصال صوتها، بل تمثل في كثير منها، مصالح أقليات مستغلة ومعادية لمصلحة الشعب الى حد كبير. وفي مثل هذه الحال، يأتي العمل الانقلابي في كل بلد، وفي كل شعب، وهو من جهد أقلية منه. ولكنها أقلية من نوعية خاصة. اقلية واعية لواقع أمتها مؤمنة بقضية بلادها وبحقوق شعبها، متجاوبة كل التجاوب مع حاجات الشعب العميقة وأمانيه. هذه الاقلية تتقدم هنا لتمثيل الشعب، قبل ان يفوضها الشعب تفويضا صريحا بهذا التمثيل، وهي التي تبدأ بان تتجه للشعب لتوقظه على واقعه ولتنظم نضاله وتقوده في طريق الانقلاب.

وقضية التنظيم تطرح منذ البداية في العمل الانقلابي . والا فكيف تستطيع هذه الاقلية الصغيرة ان تكون قوة وان تنهض بأعباء النضال الفعال، وكيف للعشرات او المئات ان يقفوا في وجه الفساد وان يصارعوا الرجعية والاستعمار ومصالحهما الكبيرة الكثيرة، وكيف يقاومون ما خلفته عصور الانحطاط من جهل وانقسامات ومن فوضى مستعصية على العمل المنظم وحائلة دون تعاون الشعب ومشاركته، وكيف تستطيع هذه القلة بالتالي، ان تضم حولها قوة شعبية متكافئة مع ما تصدت له من صعوبات وأخطار، كيف تستطيع كل هذا اذا لم تستنجد بالتنظيم، تستنفد به كل كفاءاتها وامكانياتها، وتعوض عن قلة عددها وفقر وسائلها، وتفتح أمام عملها طريق النمو المضطرد. فالحركة الانقلابية اذا لم تقم على تنظيم متين واع، تبدأ عملها ثم تتبعثر جهودها وتضيع بين شتى الاعمال الارتجالية، وتمضي دون ان تخلف اثرا في حياة الامة. فالتنظيم شيء اساسي وحيوي يرافق العمل الانقلابي بل هو من طبيعة هذا العمل ويستمد من فكرته الانقلابية.

ويجدر بنا هنا ان نسجل ملاحظة، حتى لانترك اي مجال للالتباس وسوء الفهم. وهي اننا لانعتبر للتنظيم قيمة في حد ذاته، اي لانراه منعزلا عن الفكرة التي يرتبط بها ويستلهم منها قواعده وحدوده. فبتجريد التنظيم عن الفكره تصبح قيمته فنية بحته، يمكن ان تستخدم للخير وللشر في آن واحد، فعصابات الاشقياء تستند في اعمالها الى التنظيم. ومعناه وصلاحه متوقف على الفكرة التي توحي به وتشرف عليه وتمده بالروح. فالتنظيم لايخلق شيئا من العدم، والتنظيم ليس كل شيء في العمل الانقلابي، وهو لايعني ان هذه الاقلية الانقلابية، ترتجل فكرتها وحركتها ارتجالا، او تعود للتنظيم لتخلق بواسطته حركة من العدم.

ان التنظيم، اي تنظيم كان، يعجز عن خلق شيء من العدم، ولكن الحركة الانقلابية كما ذكرنا، انما تقوم في أساسها على مسلمة، على ان ثمة تجاوبا بين الاقلية الانقلابية، التي كانت أسبق من غيرها الى وعي الواقع والشعور بالمسؤولية واقدرعلى ذلك، وبين بقية افراد الشعب، تجاوبا في الروح والحاجات والاماني. الاقلية الانقلابية لاتبتدع شيئا من نفسها ولا ترتجل، ومهمتها في الواقع ان تترجم

حاجات الشعب العميقة، هذه الحاجات التي تكون غامضة ومجزأة بالنسبة للشعب الذي لم يبلغ بعد الحد الكافي من العلم والوعي او من القدرة على التعبير عن هذه الحاجات، وان عبر بين الحين والحين، بانتفاضات وحركات آنية تنم عن اتجاهه وعن حيويته وطاقته النضاليه، كما تعبر بشكل جزئي وغامض بل ومشوه أحياناً عن اهدافه التي يسعى اليها. ثم تأتي هذه الاقلية، التي هي من هذا الشعب، والتي يفترض فيها انها شاركت الشعب انتفاضاته ونضاله البدائي (وهذه الاقلية كانت في الاصل موزعة وغير متعاونة، ثم تعارفت وتوحدت بنتيجة التجربة والمراس الطويل والوعي. واصبحت قادرة على قراءة ما يعتلج في قلوب ابناء الشعب) لتتعرف من خلال آلام الشعب وانتفاضاته الارتجاليه، على اهدافه الحقيقية وعلى امكانياته وقدرته على تحقيق هذه الاهداف. فعندما نقول أن الاقلية الانقلابية لا بد وان تعتمد اعتمادا اساسيا على التنظيم، فلانها تبدأ من اعتمادها على ذلك التجاوب العميق بينها وبين أكثرية الشعب الساحقة، وتعرف ان طريقها الى قلوب الشعب مفتوحة، وان التنظيم هو الذي يمكنها من الوصول الى الشعب ومن قيادته، كما يمكنها من اختصار الزمن وتسهيل عقبات الطريق. وما مهمة الانقلاب الا حشد القوى وتسهيل الطريق وازالة العقبات من طريق الشعب الذي يناضل في سبيل تحقيق اهدافه القومية.

واذا كان التنظيم لا يخلق شيئا من العدم، فان هذا لايتناقض مع كون التنظيم الانقلابي ذاته عملا خلاقا. وذلك بمعنى ان هذه القوى والطاقات النضالية الكامنة في نفوس الشعب تبقى غير متحققة بغير هذا التنظيم الانقلابي. ووجودها هكذا كامنة، مثلها كمثل رجل يحتفظ بمبلغ من المال في صندوقه دون ان يستعمله، فلهذا المال وجود ولكنه غير محقق لقدرته الشرائية وغير مستثمر. وقوة الشعب النضالية يكون وجودها هكذا كامنا او مهدورا، والاقلية الواعية اول من يشعر بهذه القوة النضالية الكامنة في قلب الشعب، ولكنها اذا لم تنقل هذه الطاقة الى حيز التحقق، تبقى وكأنها غير موجودة. عمل هذه الاقلية هو الذي ينقل امكانيات الشعب ويجعل منها حقائق راهنة، ويخلق منها عملا ونضالا بناء، ومثل هذا العمل

الانقلابي المنظم عمل خلاق.

لننتقل الان من التحليل النظري، الى الواقع الذي نحياه، لنرى ماهو موضع التنظيم في حياة شعبنا وفي حياة هذه الحركة الانقلابية. لسنا بحاجة الى تكرار اوصاف هذا الواقع، فهو واضح يفرض نفسه على كل شاهد وبكل ما فيه من عيوب ونقائص. وعلينا ان نقيم قواعد وركائز وقلاعا ضمن هذا الواقع المملوء بالفساد والنقص والتخلف والجهل والميوعة، وعلينا ان نبثها هنا وهناك وفي كل ناحية، لكي تكون منطلقا للحياة الجديدة وللتوجيه الجديد الذي نريد نشره بين ابناء شعبنا، لنجذب الى هذه الركائز ولنكتل في هذه الحصون العناصر الاسلم من غيرها والاقل مرضا وتشويها والاقدر من غيرها على التفاهم والتعاون والأكفأ للعمل المنظم الواعي. وبهذا العمل تتسع وتنمو هذه الركائز والحصون، لتصل بالنتيجة الى تبديل حياة الشعب بكاملها وتغيير أوضاع البلاد كلها، ونصل بالتالي الى خلق حياة جديدة لامتنا.

وهذه الركائز لم نسمها قلاعا وحصونا، الا لما ننشده من ان تكون متينة جدا لكي تصمد لمقاومة الفساد، والاعداء الخارجيين والاخطار المستمرة، وهذه العناصر الانقلابية لكي تنمو في عملها ونضالها، ولكي تتقدم ولا تكتفي بالصمود، يجب ان تكون من نوع خاص متميز، فلا يكفي ان تكون صالحة سليمة، بل يجب ان يكون النظام الذي تتبعه في عملها، صحيحا وعقلانياً ومتينا ومضمون الاستمرار والنجاح. وهنا لابد من الاصرار على دور العلم والثقافة، ودور الخبرة والتجربة، وكثيرا ما رددنا ان البعث لايمكن ان يكون الا على اساس العلم والمعرفة والكفاءات الفنية، اذ كيف يمكن ان نحقق انقلابا في حياة امة تخلفت مئات السنين عن مستوى البناء والابداع واعرضت عن المساهمة في الحضارة الانسانية، بل كيف يمكن ان نرفع امتنا التي كانت سباقة ومجلية، من جديد الى مستوى الابداع وخلق الحضارة، دون ان نعتمد كل الاعتماد على اساس متين من العلم والثقافة والخبرة الفنية، وهذا ما يجب ان يقوم عليه التنظيم الانقلابي ليكون قادرا على خدمة اهداف الانقلاب وتحقيقها. فنحن هنا بحاجة للكفاءة والعلم وللافادة من خبرة وتجارب الشعوب

المناضلة والامم المتحضرة، وهذه التجارب تعطينا قواعد ودلائل نسترشد بها في تنظيمنا ونقتدي بها في عملنا على ان نلائم بينها وبين اوضاعنا ونعدل منها حسب ظروفنا، وهناك اشياء عامة ومشتركة لايستغنى عنها في اي بلد بالنسبة لاي شعب، وهناك قواعد اساسية خرجت من خبرة وتجارب طويلة للامم التي سبقتنا في مجال الحضارة.

اذن فعملنا يجب ان يقوم على الاختصاص وان يسير في دأب واستمرار. وتنظيمنا يجب ان يكون متناسق الحلقات والاجزاء كالجسم الحي، كل عضو فيه يقوم بمهمته الخاصة ولكن ضمن المخطط العام الذي يضمن الحياة والنمو الكامل لهذا الجسم. والشيء الذي نريد الالحاح عليه هنا، لاننا قلما نوفيه حقه من الاهتمام والتقدير، هو ان التنظيم الانقلابي الذي نحتاجه ولم نبلغ بعد مستواه، يتطلب انقطاع افراد للعمل الحزبي انقطاعا تاما، ليجعلوا من العمل الحزبي الانقلابي شاغل حياتهم، منه يعيشون ويكسبون رزقهم، وفيه يضعون جميع امكانياتهم وكفاءاتهم وآمالهم وطموحهم. وبمثل هذا وحده، يمكن ان تنشأ عند هؤلاء الافراد، خبرة قومية نضالية عميقة، نتيجة الاستمرار الطويل والدأب والممارسة ومواجهة المشاكل يوميا، والوقوع في الاخطاء الكثيرة وتصحيح هذه الاخطاء بالتجربة والممارسة والمراقبة، والاتصال اليومي المباشر بحياة الشعب والتعرف الى مشاكله، والصلة الدائمة بحياة الحزب ومعاناة كل مشاكله وقضاياه للخروج من كل هذا بخبرة جديدة في كل يوم وكل سنة. وعلى هذا الاساس يستطيع الحزب ان يخلق افرادا يكونون في البدء آحادا ثم يصبحون عشرات ثم مئات والوفا، ويكون لكل فرد من هؤلاء، بنتيجة هذه الممارسة وهذا الايمان الذي تعزز بالعمل النضالي المتواصل، من الخبرة والكفاءة ما يعدل الفا ويستطيع ان يخلق الحركة والحياة في ألف آخرين وان يكون مصدر اشعاع وتوجيه ووعي وقوة لمجموع الشعب. فالشباب المثقف الذي وعي ان مكانه التاريخي هو في هذه الحركة الانقلابية، فتقدم اليها وسار في طليعتها، يجب ان يكمل هذا الوعي بالعمل النضالي الشعبي الانقلابي المنظم. فلا يقف عند هذه المرتبة الاولى من الوعي، بل يرتفع الى مرتبة اخرى،

ليعرف كيف تكون مشاركته على اقوى وأحسن شكل، وليجعل مشاركته اقوى مردودا واعمق اثرا في حياة الامة في هذه المرحلة.

تموز ١٩٥٥